

262501 - يسأل : كيف وثق يعقوب عليه السلام في أبنائه مرة أخرى وأرسل معهم أخو يوسف في المرة

الثانية ؟

السؤال

أريد أن أسأل عن سيدنا يعقوب عليه سلام في قصته مع أولاده ويوسف عليه سلام ، وذلك أنه عندما طلب منه أولاده أن يرسل يوسف معهم وافق على ذلك ، مع علمه بأنهم يغارون منه ، ثم بعد ذلك عندما طلبوا منه أن يرسل معهم أخا يوسف أيضا وافق على ذلك ، مع أنهم خانوه في المرة الأولى ، فما الحكمة وراء ذلك ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً:

أما أخذهم ليوسف في المرة الأولى، فإنما كان بعد مراجعة ليعقوب عليه السلام، وإلحاح في أخذه معهم . قال الله تعالى : ( قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ \* أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ \* قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ \* قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ) يوسف /11-14

قال ابن كثير رحمه الله : " وقد أخذه من عند أبيه ، فيما يظهر منه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه

فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعته معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له...

قال الله تعالى: (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته ، وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع" . انتهى.  
"تفسير ابن كثير": (4 / 374)، وانظر تفسير الطبري: (13 / 29).

وقال ابن عاشور: " تفريع حكاية الذهاب به والعزم على إلقائه في الجب على حكاية المحاورة بين يعقوب- عليه السلام- وبنيه في محاولة الخروج بيوسف- عليه السلام- إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنهم ألحوا على يعقوب- عليه السلام- حتى أقنعوه فأذن ليوسف- عليه السلام- بالخروج معهم، وهو إيجاز"، التحرير والتنوير: (12 / 233).

ثانياً:

وأما في المرة التالية ، فقد قص الله شأن إخوة يوسف ، مع أخيهم بنيامين ، وكيف حاولوا مع أبيهم ، حتى وافقهم في نهاية الأمر ، وأسلم لهم أخاهم بنيامين ، بناء على ما ذكروه من رغبة وحاجة .

قال معين الدين الإيجي رحمه الله :

" (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ): بعد ذلك إن لم نذهب بأخيينا .

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ): نحن وهو الطعام، ونرفع المانع من الكيل . (وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) .

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) : فإنكم ذكرتم في يوسف مثل ما ذكرتم هنا بعينه ؛ فهل يكون أماني هنا إلا كأماني هنالك ؟ أي : كما لا يحصل الأمان هناك، لا يحصل هنا!

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا) فأعتمد عليه .. (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ): فאלله أسأل أن يرحمني بحفظه ... "

ثم قال :

" (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ)، تعطوني، (مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ): عهداً مؤكداً بذكر الله تعالى، (لَتَأْتُنِّي بِهِ) جواب القسم إذ معناه حتى تحلفوا لتأتُنِّي، (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ): إلا أن تغلبوا فلا تقدرُوا على إتيانه أو إلا أن تهلكوا جميعاً ، أي: لتأتُنني على كل حال ، إلا حال الإحاطة بكم، (فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ): يعقوب، (اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ): من العهد، (وَكَيْلُ): مطلع ويمكن أن يكون معناه الله تعالى وكيل على حفظ ذلك العهد نكلُ أمره إليه " انتهى، "جامع البيان" للإيجي (2/226) .

فيعقوب عليه السلام ، إنما سلمه إليهم لما ذكروه من الحاجة إلى بعثه معهم ، وهو لم ينس ما فعلوه أول مرة ، ولكنه استوثق منهم ، بما استطاع من إيمانهم ، وعهودهم ؛ وتوكل على الله في حفظ ولده ورده إليه ، فبحفظ الله وكفايته كانت ثقته ، لا بمجرد الإيمان التي بذلوها .

جاء في التفسير الوسيط ، ط مجمع البحوث الإسلامية (5/352) :

" (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) :

أي : لم يحدث منكم ما يقتضي الاطمئنان على وعودكم، فقد وعدتموني من قبل بالمحافظة على أخيه يوسف ، وجئتموني بدونه ، وزعتم أن الذئب أكله ؛ فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التي أمنتكم بها على أخيه. دون أي يتغير حالكم، ويدعوني إلى الاطمئنان لعودكم ؟!

(قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) : أي فإله خير منكم ، ومن سواكم ، حافظًا ، وهو أرحم الراحمين ، فلذا أكل أمر حفظه إلى فضله ورحمته سبحانه ، ولا أعتمد في ذلك عليكم ، فقد جربتمكم فما وجدت فيكم وفاءً بوعده ، ولا حفظاً لعهد. " انتهى

وقيل : بل تغيرت حالهم ، وظهر من قرائن صدقهم : ما ساعد على أن يسلمه إليهم ، ويستأنمهم عليه ، حتى قيل : إنهم نزلت عليهم النبوة في هذا الوقت ، وإن كان الأظهر أن ذلك لم يكن ، وأنهم لم يكونوا أنبياء . لكن : ليس أقل من أنهم من أهل بيت نبوة ، وأن نوازع الشر ليست مستمكنة فيهم ، وإن نزع الشيطان بينهم وبين أخيهم يوسف ، حتى كان منهم ما كان .

قال ابن عطية رحمه الله : " وتألّم يعقوب عليه السلام من فرقة بنيامين ، ولم يصرح بمنعهم من حمله ، لما رأى في ذلك من المصلحة ، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم . وأنه يخاف عليه من كيدهم ، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نبئوا ، وانتقلت حالهم ، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل ، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ، ثم استسلم لله تعالى ، بخلاف عبارته في قصة يوسف. " انتهى ، " المحرر الوجيز " (260-3/259) .

وقال أبو حيان رحمه الله : " وَلَمْ يُصْرِحْ بِمَنْعِهِ مِنْ حَمَلِهِ لَمَّا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ . وَشَبَّهَ هَذَا الْإِتِّمَانَ فِي ابْنِهِ هَذَا بِإِتِّمَانِهِ إِيَّاهُمْ فِي حَقِّ يُوسُفَ . قُلْتُمْ فِيهِ : وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ ، كَمَا قُلْتُمْ فِي هَذَا ، فَأَخَافُ أَنْ تَكِيدُوا لَهُ كَمَا كِدْتُمْ لِدَلِكْ ، لَكِنَّ يَعْقُوبَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ كَمَا خَافَ عَلَى يُوسُفَ ، وَاسْتَسَلَّمَ لِلَّهِ وَقَالَ : فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا " انتهى ، " البحر المحيط " (6/259) .

والحاصل :

أن الحاجة كانت داعية لإرسال أخيهم معهم في المرة الثانية ، والمصلحة كانت في ذلك ظاهرة ، وقد تغلب يعقوب عليه السلام على داعي الخوف والوجل منهم : بما أخذه عليهم من العهود والمواثيق . مع أن حالهم مع بنيامين ، لم تكن داعية لأن يفعلوا به مثل ما فعلوا بيوسف عليه السلام ، لا سيما وقد رأوا من وجد أبيهم به ، وحزنه عليه ، ما يمنعهم من معاودة ذلك .

والله أعلم .